المقتطف

الجزء التاسع من السنة الرابعة عشرة

١ حزيران (يونيو) سنة ١٨٩٠ الموافق ١٣ شوال سنة ١٣٠٧

الصداقة

عليكَ باخوانِ الصفاء فانّهم عمادٌ اذا استجددتهم وظهورُ
وليس كثيرًا الف خلٍّ وصاحبٍ وانّ عدوًّا واحدًا لكثيرُ

حيّاكِ اللهُ ايتها الصداقة ابنة السماء وعشيرة الاملاك فلقد اشرق نور بهجتكِ في عالمنا فاشرق فيهِ البشر والحبور . وحاولتْ جيوش الأثرة استعبادكِ فنزتِ عليها وكان لكِ من نوع الانسان خير نصير . ولقد تجلّيتِ امام اسلافنا الاقدمين فاستعانوا بكِ على مغالبة الشرور واقتلاع الشوك من مسالك العمران وعلموا منكِ ان المرء كثير باخيهِ فاعتزّت بكِ جماعاتهم وقويت عصاباتهم وارتقوا في معالي الكمال

وانتِ انتِ مطلوبة لذاتكِ مهما كان المآل . ومرأتُعكِ اكواخ الصعاليك وقصور الملوك على حدٍّ سواء بل نراكِ في القفار والغابات بين وحوش الارض وطيور السماء . ومهما حسنت نتائجك فانتِ افضل من كل نتيجة . والمحبة نفسها لا تقاس بكِ بل كثيرًا ما ننتهين بها فنضطرين ان تغادري القلوب التي كنتِ فيها وتتركيها لبنات المحبة الغيرة والعتب والمناظرة وكل ما يقوم بين الزوج والزوجة والاخ واخيهِ والرجل وصاحبهِ من دواعي الكدر . ولا خير في حبٍّ لا تحتمل اقذاؤهُ ولا يُشرَب على الكدر ماؤهُ كما قال ابو بكر الخوارزمي

والغريب من امر الصداقة بل من امر ابن آدم انهُ مع حرصهِ الشديد على اقتناء كل مرتخصٍ وغالٍ لا يحرص على اصطناع الاصدقاء فقد قال سقراط الحكيم في سالف عهدهِ

"اني افضل الصديق على كل قنية ولكنّ الاكثرين يعرفون عدد مقتنياتهم مهما كانت كثيرة واما اصدقاؤهم فلا يعرفون عددهم على قلتهم واذا ارادوا احصاءهم اضطروا ان يحذفوا من بينهم كثيرين من الذين كانوا يعدونهم اصدقاء قبل امعان النظر دلالةً على قلة اهتمامهم بالامر مع ان الصديق الصدوق خير من كل قنية"

وقال شيشرون "مهما اختلف الناس في آرائهم فهم متفقون على مدح الصداقة ولا احد اجهل ممّن كان في سعة من العيش والجاه وحرِصَ على اقتناء الخيول والعبيد والملابس والاواني الفاخرة ولم يحرص على اصطفاء الاصدقاء وهم خير قنية"

وقد اتّفق الحكماء المتقدمون والمتأخرون على تشبيه الصديق بالكتاب النفيس فانهُ جليس لا يُطري ورفيق لا يُمَل ترتاح اليهِ النفوس وتنفرج بهِ الكروب . وقالوا الصديق الصدوق ثاني النفس وثالث العينين ولا تساغ مرارة الاوقات الاّ بحلاوة الاخوان الثقات فاستروحْ منْ غمّة الزمان بمؤانسة الخلاّن . وحثوا كلهم على اختيار الاصدقاء من كرام الانام قال طرفة بن زيد

اذا كنتَ في قومٍ فصاحِبْ خيارهم ولا تصحب الاردا فتردى مع الردي
عن المرء لا تسألْ وسَلْ عن قرينهِ فكلُّ قرينٍ بالمقارن يقتدي

وقالوا اصطفِ من الاخوان مَن كان ذا عقل موفور يهتدي بهِ الى مراشد الامور. وقال ابن مسعود ما شيءٌ ادلُّ على شيءٍ ولا الدخان على النار من الصاحب على الصاحب. وقال السر جون لُبك الانكليزي "ان كثيرًا من سعادتنا وحسن سلوكنا يتوقف على اصحابنا واصدقائنا فاذا اخترنا من الاصدقاء غير الكرام اضطررنا ان نحط الى مقامهم واذا اخترنا الكرام رفعونا معهم ولكن الاكثرين يكلون الامر الى التقادير. ويحسن بالانسان ان يبثّ في وجه كل من يصاحبهُ ولكنّ اختيار الاصدقاء من الاصحاب امرٌ آخر. ومن الناس من يصادق غيرهُ لانهُ جارهُ في السكن او رصيفهُ في العمل او رفيقهُ في السفر او لسبب آخر مثل هذه الاسباب . ولا اضلّ من ذلك فان هؤلاء صور الصداقة واضاعها كما قال فلوطرخس" . واما الصديق الصدوق "فيكون حاضرًا ولو غاب وغنيًا ولو افتقر وصحيحًا ولو مرض وحيًّا ولو مات" كما قال شيشرون. نعم على الانسان ان يسالم جميع الناس وانْ عدوًّا واحدًا لكثير كما قال الامام علي ولكن بين المسالمة والمصادقة بونًا شاسعًا لان الصداقة مطلوبة لذاتها بدون ان يُنتظر منها نفع او يَزال بها ضرٌّ واما المسالمة فيقصد بها جلب النفع وازالة الضر

وقيل لبزر جمهر من احبّ اليك اخوك ام صديقك فقال ما احبّ اخي الاّ اذا كان لي صديقًا. وقال ابو تمام واجاد

ذو الودّ مني وذو القربى بمنزلة ... واخوتي اسوة عندي وإخواني
عصابة جاوزت آدابهم ادبي ... فهم وإن فُرّقوا في الارض جيراني
ارواحنا في مكان واحد وغدت ... ابداننا بشآم او خراسان

وخير مثال للصداقة ما جاء في قصة ابامينداس وبلوبيداس وفي قصة دامون وبيثياس فقد قيل في الاولى ان ابامينداس وبلوبيداس اليونانيين خرجا الى الحرب وربط كلٌّ منهما ترسهُ بترس الآخر لكي لا يفترقا فصدَّا هجمات العدو واليا فيهِ بلاء حسنًا الى ان اثخنت الجراح بلوبيداس فسقط مضرجًا بدمائهِ فعزم ابامينداس ان يموت بجانبهِ ولا يفارقهُ فحارب محاربة يومًا الى ان اثخنتهُ الجراح ايضًا وحينئذٍ ورد اليهِ المدد من رجال اليونان فاخذوهُ وصديقهُ وهما على آخر رمق وداووهما فشفيا ولما رأوا شدة بسالتهما وصداقتهما جعلوهما قائدين لجنودهم فدامت صداقتهما حتى الممات ولم يكدرها حسد ولا غيرة

وقيل في الثانية ان ديونيسيوس الطاغية ملك سرقوسة حكم على رجل اسمهُ دامون بالموت في يوم معلوم فاستأذن دامون الملك ليذهب الى بيتهِ ويرى اهلهُ قبل موتهِ فاذن لهُ وشرط عليهِ ان يقيم كفيلاً فلما بلغ صديقهُ بيثياس ذلك عرض نفسهُ كفيلاً ودخل السجن مكان دامون. ومضى دامون في سبيلهِ وجاء الملك الى بيثياس الى السجن وجعل يلومهُ على ما صنع ويثبت لهُ بطلان الصداقة وبيثياس يتمنّى ان يحدث ما يعيق دامون عن الحضور في الاجل المعين لكي يموت هو بدلاً منهُ. وجاء اليوم المعين وجلس الملك في مركبة يجرها ستة من جياد الخيل وصعد بيثياس الى حيث تقطع الرؤوس فرحًا متهلّلاً وخاطب الجمع قائلاً "قد سمعت الآلهة صلواتي واثارت العواصف لمنع دامون عن الحضور في هذا اليوم فسيحضر غدًا بعد ان اكون قد افتديتُ حياتهُ بدمي ولو امكنني ان انزع من نفوسكم كل شبهة في شهامتهِ وصدق طويتهِ لرحبتُ بالموت ترحيبي بالعرس. وسترون اخلاص صديقي وصدقهُ فانهُ الآن مُقبل على الطريق يشكو من مضادّة العواصف لهُ" ثم التفت الى الجلاّد وقال لهُ "اضرب" واذا بصوت ينادي من بعيد ويقول تمهّل تمهّل فالتفت الجمع واذا بدامون على جواد يسابق الرياح فاسرع الى بيثياس وضمهُ الى صدرهِ وقال لهُ قد نجوتَ ايها الصديق والآن اهلاً بك ايها الموت لاني لم اعد ملومًا بانني كنت سببًا لهلاك صديقي والتفريط في حياتهِ وهي اثمن لديَّ من

حياتي . فاخذ بيثياس يذم التفاديين التي انت بصديقهِ في تلك الساعة وقال اذا كنتُ لا استطيع ان انجيك بموتي فلا مطمع لي بالحياة بعدك . وسمع الملك ذلك فاغرورقت عيناهُ بالدموع وصعد اليهما وقال قد عفوت عنكما فانكما قد اثبتما وجود الفضيلة بحبكما الصادق ووجود الفضيلة يثبت وجود الهٍ يجازي عليها . فاسلما من القتل كلاكما وارشداني لاكون اهلاً لهذه الصداقة الطاهرة "

وهذه القصة مثل قصة النعمان بن المنذر مع حنظلة الطائي وقراد بن اجدع الكلبي وذلك ان النعمان في ما رواهُ كتّاب العرب سكر في احد الايام وكان له نديمان فامر بقتلهما ولما صحا سأل عنهما فأُخبر بخبرهما فحزن عليهما حزنًا عظيماً وامر بدفنهما وبنى فوقهما بناءين يقال لهما الغريّان وجعل لنفسهِ كل سنة يوم بؤس ويوم نعيم يجلس فيهما بين الغريين فيكرم مَن وفد اليهِ في يوم النعيم ويقتل مَن وفد في يوم البؤس ويطلي الغريين بدمهِ . ووفد عليهِ حنظلة يوم البؤس وكان قد اضاف النعمان وامرهُ النعمان ان يفد عليهِ ليثيبهُ فلما نظر اليهِ ساءهُ وفودهُ في ذلك اليوم وقال له لو سنح لي شيء هذا اليوم قابوس لم اجد بدًّا من قتلهِ فاطلب حاجتك من الدنيا . قال ابيت اللعن وما اصنع بالدنيا بعد نفسي ثم قال اجّلني حتى اعود الى اهلي فاوصي اليهم واقضي ما عليّ ثم انصرف اليك . قال فاقم لك كفيلاً فوثب اليهِ قراد بن اجدع الكلبي وقال عليّ ضمانهُ فرضي النعمان بذلك وامر للطائي بخمس مئة ناقة فانصرف وجعل الأجل حولاً كاملاً . فلما حال الحول وقد بقي من الاجل يوم واحد قال النعمان لقراد ما اراك الاّ هالكًا فقال قراد فان بكَ صدرُ هذا اليوم ولّى فانّ غدًا لناظرهِ قريبٌ . ولما اصبح النعمان ركب كما كان يفعل حتى اتى الغريين فوقف بينهما وامر بقتل قراد فقال لهُ وزراؤهُ ليس لك ان تقتله حتى يستوفي يومهُ فتركهُ فلما كادت الشمس تغيب وقراد قائم مجرّد في ازار على النطع والسيّاف الى جانبهِ رُفع لهم شخص من بعيد واذا هو الطائي فلما نظر اليهِ النعمان قال له ما الذي جاء بك وقد افلتَّ من القتل قال الوفاء قال وما دعاك الى الوفاء قال ديني قال وما دينك قال النصرانيّة فتنصّر النعمان واهل الحيرة وترك تلك السنّة من ذلك اليوم وعفا عن قراد والطائي

هذا وهب ان هاتين القصتين موضوعتان فارتياح النفس اليهما دليل على ارتفاع شأن الصداقة ولاسيّما اذا تجرّدت من طلب النفع ولكنّ النفع حاصل من الصداقة طُلب ام لم يطلب وما احسن ما قيل

ما ضاع من كان له صاحبٌ يقدر ان يرفعَ من شأنهِ
فانما الدنيا بسكّانها وانما المرء باخوانهِ

وجاء في الحديث عليكم باخوان الصدق فانهم معونة على حوادث الزمان وشركاء السراء والضراء. ويقال من اتخذ اخوانًا كانوا له اعوانًا وقال شبيب ابن شبة عليك بالاخوان فانهم زينة في الرخاء وعدّة عند البلاء

وقد حثّ الكتّاب كثيرًا على التثبّت في اختيار الاصدقاء لئلاّ ينقلب الصديق عدوًّا ومن ذلك قولهم

احذرْ عدوّكَ مرةً واحذرْ صديقكَ الف مرّهْ
فلربّما انقلب الصديقُ فكان اعلمَ بالمضرّهْ

وقالوا يجب ان يكون المتصادقان كنقدين لئلاّ يشين احدهما الآخر وضربوا لذلك مثلاً وهو ان ابريقًا من الخزف وابريقًا من النحاس حملهما السيل وسار بهما فالتفت ابريق النحاس الى ابريق الخزف وقال له ياصاح هلمّ بنا نتصادق ونتعاون فاجابهُ ابريق الخزف اليك عني لانهُ اذا ضربني السيل بك او ضربك بي كسرتني لا محالة. ويقال على قدر تشاكل الاجناس تتألف قلوب الناس. واشترطوا لصدق الصداقة شرائط كثيرة كحفظ العهد وبذل المال واخلاص المودّة ورعاية الغيب وتوقير المشهد ورفض الوحدة وكظم الغيظ واستعمال الحلم ومجانبة الخلاف وطلاقة الوجه وصدق اللسان والمشاركة في البأساء. وقال بعضهم اصحب مَن اذا صحبتهُ زانكَ واذا خدمتهُ صانكَ واذا اصابتك خصاصة مانكَ واذا رأى منك حسنة عدّها واذا عثر على سيئة سدّها لا تخاف بوائقهُ ولا تختلف عليك طرائقهُ. وأكثرة هذه الشرائط وعدم توفّرها في كثيرين استدلّ بعضهم الاصدقاء الصادقين. قيل سُئل سقراط وكان يبني بيتًا صغيرًا في اثينيا على مَ جعلت البيت صغيرًا فقال اني اعدُّ نفسي سعيدًا اذا وجدتُ اصدقاء يملأونهُ. وقال امرسن الكاتب الاميركي اننا نمشي في الارض وحدنا والاصدقاء الذين نطلبهم انما هم اوهام واحلام. وقال باكون الفيلسوف ما اقلّ الصداقة في الدنيا ولاسيما بين الاكفاء وقال الشاعر العربي

خيرُ اخوانك المشارك في المرّ م وابن الشريك في المرّ ابنا
ما ارى للانام وِدًّا صحيحًا صار كل الوداد زورًا ومينا

ولكن ذلك كلهُ في حد الغلو والاصدقاء الخُلّص لا تخلو الدنيا منهم. وان كانوا قلالاً

فالكرام قليل عددهم في كل مكان وزمان . والصديق مَن عذر صديقهُ وستر خلتهُ وما احسن ما قيل

اذا كنتَ في كل الامور معاتبًا صديقك لم تلقَ الذي لا تعاتبُهْ
وان انت لم تشربْ شرابًا على القذى ظمئتَ وايُّ الناس تصفو مشاربُهْ
فعِشْ واحدًا او صُن اخاك فانهُ مقارف ذنب مرةً ومجانبُهْ
ومن ذا الذي ترضى سجاياهُ كلها كفى المرء نبلاً ان تعدَّ معايبُهْ

وخير الناس من اقال عثرات الناس واصطنع الاصدقاء وحافظ عليهم

كسوف الشمس الحلقي

وفي السماء نجومٌ لا عداد لها وليسَ يكسفُ الاَّ الشمسُ والقمرُ

ولو كان هذا الشاعر في ايامنا وراقب الكواكب بآلاتنا لعدلَ عن هذا القول وعلم ان كثيرًا منها ينكسف انكساف الشمس والقمر ولو لم يرَ كسوفهُ بالعين الباصرة . لان ما يقع عندنا من حيلولة القمر بين الارض والشمس او حيلولة الارض بين الشمس والقمر وانحجاب وجه الشمس عن القمر او عن جانب من الارض يقع ايضًا في السيارات ذوات الاقمار فتتوسط اقمارها بينها وبين الشمس او تتوسط هي بين الشمس وبين اقمارها فتنكسف الشمس عنها في الحالة الاولى وتنخسف الاقمار في الثانية

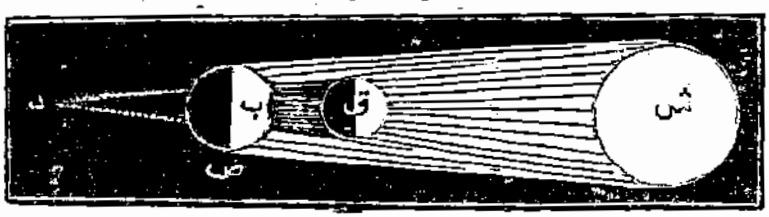

وكيفيَّة حدوث الكسوف بسيطة جدًّا ويمكننا ان نزيدها بسطًا بما يأتي : من المعلوم ان القمر جسم كروي مظلم وكذلك الارض . والاجسام المظلمة الكرويَّة اذا كانت امام جسم منير اكبر منها يكون لها ظلٌّ مخروطي قاعدتهُ فيها ورأسهُ بعيد عنها . ويختلف طول هذا المخروط بحسب كبر جرمها وقربها من الشمس وبعدها عنها . فلنفرض ان ش كرة الشمس و ق كرة القمر فالنور ينبعث من الشمس الى كل الجهات ويقع بعضهُ على القمر فيحجب القمر بعض هذا النور عما وراءهُ ويمتد منهُ ظلٌّ مخروطي الى د ولكن كرة الارض